الأشيب حيث لا إنس ولا جنّ أتوقّف عن السير وألتفت إلى الوراء فأبصر المساكن القرويّة منثورة على أضالع التلال وفي منحنياتها. فأستغرب أشكالها وألوانها. بل أستغرب وجودها في ذلك البلقع الأبيض فكأنّني ما أبصرتها من قبل في حياتي ولا عرفت أحداً من ساكنيها. وكأنّها حيث هي ثآليل ودمامل في وجه صبيح سنيّ.

ثمّ يخيّل إليّ أنّ الدخان المتصاعد من بعض تلك المساكن ألسنةٌ تبثّ شتّى المشاعر والهواجس. فلسانٌ يمّ، وآخر يشكو الفاقة، وثالث يشكو التخمة، ورابع يتبجّح، وخامس يعاتب الله، وسادس يحوك المكائد، وسابع يصلّي صلاة المنسحق، وثامن صلاة المعربد، وتاسع يرسم الخطط لإصلاح الكون وعاشر يقول: باطل الأباطيل. كلّ شيء باطل. ـ هذا يبارك وذلك يلعن. هذا يؤكّد وذلك ينفي. هذا يلسع وذلك يلثم ـ شأن ألسنة الناس في كلّ زمان ومكان.

ألا بُعداً لهذه المساكن والمدافن. وإلى العراء. إلى العراء الأبيض!

وأين الطريق؟ لقد غابت معالمه فما يكاد يتميّز من بقية الأرض بشيء. وإنّه لشعور لا يوصف أن تجري كيفما شئت وأينما شئت من غير أن تتقيّد رجلاك وعيناك بفسحة ضيقة